فلسطين وأهلها

# عمران الاستعمار ..

# إسمنت ينتزع القدس من ناسها

# عمران الاستعمار .. إسمنت ينتزع القدس من ناسها

سلام أبو شرار

مقدمة

ينطلق هذا المقال من تصورٍ يقوم على تحليل العلاقة بين بنية الإنسان وبنية العمران في سياق مدينة القدس المحتلة، وما تنطوي هذه البُنى عليه من صراع وجود، حيث إن بنية الإنسان تجسد إرادته المتعالية في التاريخ، وبنية العمران تجسد الامتداد الجمالي في الفراغ والذي هو تجلٍّ لفاعلية إرادته ضمن حركة التاريخ.[1]

وإن كان من المألوف أن يكون الهدم أداة قهر استعماري تحاول إعاقة حركة الفلسطيني في التاريخ، فإن هذا المقال يسعى لتقديم قراءة لفرضية يكون فيها البناء أيضًا قهرًا استعماريًا يُصمّم لإهلاك بنية الإنسان الفلسطيني الجوانية، وصدّ أي انعكاس لإرادته في صياغة المشهد العمراني للمدينة بوصف إنسان المدينة جزءًا من الهوية الحضرية لها، ومن ثمّ إعاقة تقدّمه في حركة التاريخ.

## الاستعمار في زي الحداثة

بصورة عامة فإن المُدن العربية آخذة بالنمو العمراني على نحو متأثّر بصورة المدينة الغربية الحديثة، وهو نموّ يعيد تعريف مفهوم المركز والبيت وما

1 الإنسان والعمران واللسان: رسالة في تدهور الأنساق في المدينة العربية. إدريس مقبول. ص26 بتصرف.

يحيطهما من أنسجة تفاعلية بالنسبة لسكان المدينة والأجيال المتلاحقة فيها. وإعادة التعريف هنا تنطوي على إعادة صياغة صورة المدينة العربية والبيت في مخيلة السكان، ففي حين نمت المدن العربية القديمة حول نواة واضحة المعالم تتسق مع الهوية الفكرية للسكان، سواء في الحيّز العام أو الخاص، فإنّ المدينة الحديثة اليوم تتمدّد على نحو مختلف يرسم صورًا أخرى بعيدة عن الهوية الأصلية للسكان.

واستنادًا إلى أن المدينة الفلسطينية تعيش اليوم حالة هجينة يتمازج فيها الاستعمار مع الحداثة، فإن تأثر هذه المدينة بصورة المدينة الغربية الحديثة يعزّز من تغلغل الاستعمار في حياة الناس وتكبيله لهم، ابتداءً من أدق تفاصيل حياة الشخص الواحد في بيته، وصولًا إلى الصورة الكبيرة للمدينة.

فمدينة القدس نَمَت تاريخيًا حول البلدة القديمة بما تحمل من مركزية دينية في الأساس، وتمدّدَ الوجود العمراني حولها متضمّنًا النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ومختلف صور التفاعل الإنساني مع الفضاء الحضري لها. واتخذت البيوت فيها شكلًا يعكس هوية أهلها الفلسطينيين، وهو ما يمكن استشفافه من طريقة البناء للبيوت التي سبقت حقبة ما بعد انتفاضة الأقصى.

ومن هنا يمكن لنا أن نفهم كيف تعمل سياسات الاحتلال بشكل شبكي لتعزيز حالة اغتراب الفلسطيني عن روح المدينة الأصيلة، فهي تقمع وتضغط وتُرَهِّب بسياسات مختلفة في البلدة القديمة بالقدس بصور مختلفة لتفريغها، وتمارس سياسات الاستيطان في الأحياء الملاصقة للبلدة القديمة، وتدفع الفلسطيني نحو التمدّد العمراني في الأحياء البعيدة نسبيًا عن مركز المدينة، وتلك التابعة لإدارة بلدية الاحتلال والتي تقع خارج حدود جدار الفصل العنصري، وتتدخل في شكل هذا التمدّد الذي يتخذ في معظمه شكل التمدّد العمودي لا الأفقي.

وعليه، فإنه ومع مرور الوقت ستصبح المسافة أبعد في وعي الأجيال المتلاحقة

بيـن الصـورة الأصليـة للمدينـة العربيـة والصـورة المعاصـرة لها، لتصبـح الصـورة المألوفة العاديـة هـي صـورة المدينـة المعاصـرة ذات البنايـات العاليـة ومراكـز التسـوق، وسـواها مـن مظاهـر المدينـة الغربيـة الحديثـة. وهـو مـا يبـدّد العلاقـة الوجدانيـة بيـن الهويـة العمرانيـة العربيـة، والإنسـان وطرقـه في بنـاء النسـيج الاجتماعـي حوله.

وفي حالـة القـدس، فـإنّ هـذا التأثّـر بالمدينـة الغربيـة الحديثـة في ظـل سـلطة اسـتعمارية تحكـم المدينـة وسـكّانها، ينخـر في تماسـك نسـيجها الاجتماعـي لا في مواجهـة أمـراض الحداثـة فحسـب، بـل أيضًـا في مواجهـة الاسـتعمار والتقـدّم في الفعـل التحـرري، خصوصًـا في ظـلّ عـدم وجـود اسـتراتيجية فلسـطينية للمواجهـة والبقـاء الواعـي والمُقـاوِم.

وهـو مـا يعنـي أنّ أجيـالًا كاملـة سـتكبر على هندسـة مختلفـة للعمـران في المدينـة ومـن ثـمّ، هندسـة مختلفـة للأسـرة والاجتمـاع بوصفهمـا تربـةً أوليـةً لنشـوء أيّ فعـل تحرري.

## غابات الإسمنت - مُصادرة الإرادة والمستقبل

تأثّـر النمـوّ العمرانـي في مدينـة القـدس ومـا حولهـا بتسـارع الأحـداث السياسـية في فلسـطين ابتـداءً مـن توقيـع اتفاقيـة أوسـلو عـام 1993، ثـم بنـاء جـدار الفصـل العنصـري عـام 2003، وصـولًا إلـى عـام 2010 حيـن صادقـت بلديـة الاحتـلال على خطـة 2020 والتـي تهـدف إلـى إفـراغ القـدس مـن الفلسـطينيين. وبأخـذ منطقـة كفـر عقب مثـلًا لا حصـرًا، ووضعهـا على مسـطرة التسلسـل الزمنـي المذكـور آنفًـا، نجـد أن كفـر عقـب كانـت قبـل أوسـلو قريـةً صغيـرةً لا يتجـاوز عـدد سـاكنيها 1000 نسـمة، هـم نفسـهم مـلّاك الأراضـي فيهـا، وبلـغ عـدد الأبنيـة فيهـا 189 مبنـى. وبحلـول عـام 2015 بلـغ عـدد السـكان 50 ألـف نسـمة وعـدد المبانـي مـا يقـارب 1287 مبنـى.[2]

2 « التحولات الحضرية في كفر عقب منذ عام 1993 بين تحديات الواقع وآفاق المستقبل » - رسالة ماجستير، 2018، جامعة بيرزيت، إعداد: قمر محمد حمايل.

وتشير بعض التقارير الصحافية إلى أن عدد السكان الحالي لكفر عقب قد تجاوز 70 ألف نسمة معظمهم يسكنون شُققًا في العمارات المكدّسة في المنطقة.[3] ويحمل 90٪ من سكّان هذه المنطقة هوية «القدس» ويتبعون إداريًا لبلدية الاحتلال.

وعلاوة على كل ما يمكن قوله حول تردّي البنى التحتية وتهميش بلدية الاحتلال للأحياء العربية في القدس، فإنّ تأثير هذا الشكل من التمدّد العمراني يتعدّى ليصيب روح الإنسان وينزعها من سياقها الثقافي روحًا عربيةً، ويرسخ في الذهن صورة جديدة لمعنى البيت والحي والفضاء الاجتماعي وطريقة ممارسة الحياة، وهي صورة تغيب فيها قيم اجتماعية عديدة متأثّرةً بطريقة العمران التي يعيش فيها الناس.

ويفترض المقال هنا أن دفع الاحتلال للتمدّد العمراني ليتخذ شكله العمودي، يؤدّي إلى تغييب هذه القيم على مستوى الأفراد وجوّانيتهم، ثمّ أيضًا على مستوى الأنسجة الاجتماعية التي يحيون فيها، مما يشكّل تحدّيًا لصناعة رؤية استراتيجية للبقاء والمواجهة بالمعنى طويل الأمد. كما أنه عامل مساعد في إضعاف مناعة النسيج الاجتماعي خلال سيرورة الفعل التحرري وتطوّره.

يعكس التمدّد العمراني في فضاء المدينة إرادة الإنسان في تطويع مقدّراته العقلية والمادية لصياغة هذا التمدّد بما يدلّل على هويته الفكرية والثقافية. وفي حالة مدينة القدس يمكننا القول بأنّ هذه الإرادة مكبّلة بسياسات الاحتلال المستنزِفة للفلسطيني سواء كان ذلك بمحدودية مساحات الأراضي التي يمكن البناء عليها، أو بالتكاليف الباهظة للترخيص والبناء في داخل المناطق التابعة لإدارة بلدية الاحتلال، ما يعني حصار الفلسطيني بين خياري التهجير أو الاستنزاف.

ويمكن لنا قراءة تاريخ المدينة مع الاستعمار من خلال شكل التمدد العمراني فيها، والذي يعدُّ حيزًا يُمْلأَ بانعكاسات المراحل التاريخية وظروفها السياسية

3 كفر عقب.. بلدة مقدسية تُقاسي الإهمال المتعمد وغياب التخطيط : . https://bit.ly/3ErdSNA

والاجتماعية والاقتصادية، وانطلاق قدرة الإنسان على الخيال والإبداع في الحيز الفراغي من حوله.

ومن هنا، يظهر لنا أن قدرة الفلسطيني على الخيال والإبداع في المجال العمراني مُقصاة عن مشهد المدينة كون التمدد العمراني طوال ما يقارب عشرين عامًا لا يزال يتكرر بالنمط نفسه: غابات من الإسمنت.

وعلى أنّ المدينة هي فضاء للاجتماع الإنساني، فإن تشكّلها العمراني ينطوي أيضًا على تشكيل ثقافة وهوية ومنظومة من الأخلاق والطبائع. وفي حالة القُدس، المدينة التي تواجه خطر المحو، فإنها تحتاج لمنظومة متماسكة اجتماعيًا تُعلي قيم الجماعة والنضال والترابط التراحمي، لا قيم الفردانية التي تعزّزها الحياة في معازل إسمنتية على شكل شُقق قد لا يعرف فيها الإنسان مَنْ جارُه.

أي أن الحياة ضمن هذا النمط العمراني لعشرات أو مئات الآلاف من الفلسطينيين المقدسيين تُنذر بتفشي الهشاشة وإضعاف مناعة النسيج الاجتماعي في المدينة، وهو ما يجعل هذا النسيج أمام تحدٍ كبير في مواجهة سياسات المحو الممارسة بحقّ المدينة على مختلف الأصعدة. وعليه فإنّ تشكل المدينة فضاءً للاجتماع الإنساني يحتاج تخيلًا لصورة المستقبل، ثم عكس هذا التخيل من خلال الإرادة على الأرض عمرانيًا لإنتاج هذا المستقبل.

في حالة القدس فإنّ الإرادة على العمران مكبّلة ما يعني سلب أي إمكانية لصياغة صورة المستقبل. بكلمات أخرى، فإن البناء على النحو القائم حاليًا في القدس، يعني مُصادرة المستقبل أيضًا.

### في محو الفرادة

في ظلّ هذا النمط المكرر للحياة في شقق معلقة في الهواء، تغيب المساحة

التـي يمكـن للإنسـان أن يعكـس فيهـا ذاتـه المُبدعـة للجمـال في حيزه الخـاص. خلافًا لمـا كان عليـه الحـال حيـن كان نمـط التمـدد عمرانيًـا أفقيًـا، ممـا يتيـح تواصـلًا مـع الأرض وبنـاء هويـة فريـدة للبيـت، نابعـة مـن التمـازج بيـن الثقافـة والبيئـة، وتجسـيد مـا هـو مُتخيَّـل بالممارسـة: الزراعـة حـول البيـت، الحديقـة، الرمزيـة الاجتماعيـة للوقت، ومـا ينمـو حـول هـذا كلـه مـن روابـط اجتماعيـة، وهويـة عمرانيـة تتفـرد بهـا المدينة وتتطـور تاريخيًـا على نحـو حـرّ، مـا يعنـي أن حركـة الإنسـان في تاريـخ المدينـة تصبـح ذات قيمـة ومدلـول، وهـو مـا تحـاول سـلطات الاحتـلال كبحـه ومحـوه بـكل مـا أوتيـت مـن طـرق.

لتقريـب الصـورة أكثـر، يمكـن المقارنـة بيـن نمـط العمـران ومـا يحيـط بـه ثقافيًـا واجتماعيًـا في صـورة نمـو البيـوت في منطقـة مثـل بيـت حنينـا أو كفـر عقـب، وصـورة حـي مثـل القطمـون أو الطالبيـة قبـل احتلالهمـا عـام 1948. بوضـع هاتيـن الصورتيـن مقابـل بعضهمـا البعـض يمكننـا استشـفاف الكثيـر عـن إرادة الفلسـطيني وخيالـه وانعكاسـهما في هويـة المدينـة كلهـا، لنـدرك حجـم الجريمـة التـي يمارسـها الاحتـلال علينـا جوّانيًـا مـن خـلال البيـوت التـي نسـكنها!

صورة من حي البقعة  في القدس الذي احتله الصهاينة عام 1948

صورة لما صارت عليه بلدة كفر عقب، وجدار الفصل العنصري يفصلها عن القدس

إن استمرار فرض هذا الشكل من التمدد العمراني ليكون حيز حياة الفلسطيني في القدس، يؤدّي مع مرور الوقت وصيرورة حياة الإنسان الفلسطيني في ظلّ تقاطع الحداثة والاستعمار والرأسمالية إلى بتر الرابطة بين ما هو ذاتي جوّاني، وما هو موضوعي خارجي، أي أن هذه الرابطة تصبح ملعبًا لسياسات استعمارية إضافية تنزع عن حياة الفلسطيني في القدس روحها، تاركةً مئات الآلاف يعيشون هذا القهر والاغتراب يوميًا ويحاولون التغلّب عليه، ما يجعل أيّ فرصة لبناء أنسجة اجتماعية تحررية برؤية استراتيجية، تتقدم ببطء مقابل سرعة الاحتلال في عمليات التوسع وما تنطوي عليه من تفاعلات داخل فضاء المدينة.